THE 400th. BIRTHDAY OF CERVANTES

HENRY BAERLEIN

ميجويل سرفانتز*

ذكرى مرور أربعمائة سنة على مولده

[الكاتب سرفانتز من أعظم كتاب العالم بكتابه « دون كيخوت » . وقد أردنا أن يعرفه العالم العربى ويساهم فى ذكراه بنشر هذا المقال .]

فى ذات مساء فى القرن السابع عشر ، كان الملك فيليب الثالث الأسبانى يطل من نافذة قصره فى مدريد ، فرأى منظراً عجباً : رأى طالباً يسير جيئة وذهاباً إلى جانب النهر ، وهو يقرأ فى كتاب ، وبين حين وآخر يضرب رأسه بيده ، وينطلق فى قهقهة عالية . فقال الملك : — هذا الرجل إما أنه مجنون وإما أنه يقرأ « ذون كيخوت » .

إن شهرة مؤلف ذلك الكتاب كانت متأخرة ، ولكن حياته كانت مليئة بالمفاجآت ؛ وتاريخ ميلاده غير معروف تماماً ، غير أنه عمد فى كنيسة قلعة هنارس فى ٩ أكتوبر سنة ١٥٤٧ ؛ ولذلك يرجح أنه ولد فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ، حيث يقع عيد القديس ميخائيل ، وقد سمى ميخائيل أو ميجويل بالأسبانية تبركاً به . وكان أبوه بيطاراً . وفى سنة ١٥٧٠ انضم إلى الجيش الشهير الذى ألفه دون جوان النمساوى ، وفى السنة التالية ، كان على ظهر السفينة مركويزا فى موقعة ليبانتو ، وأصيب بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك فى الموقعة ؛ فأصيب بثلاث قذائف اثنتان فى الصدر ، والثالثة فى اليد اليسرى ، فشلت للأبد ، ومع ذلك لم يزد فى الاشارة إلى هذا الحادث على قوله : « نعمت اليد اليمى » .

وفى سنتى ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ اشترك فى وقائع حربية أخرى ، فكان عند

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

احتلال تونس وقام بأعمال الحراسة فى نابولى وبالرمو ، فلما أتم عمله وعاد قاصداً بلاده فى سبتمبر سنة ١٥٧٥ ، حمل معه رسالة من دون جوان إلى فيليب الثانى ، يلتمس فيها القائد ترقية حامل الرسالة ، فكانت هذه الرسالة سبباً فى مصابه ؛ إذ أسر قرصان البربر السفينة التى كان عليها فى ميـاه مارسيليا ، وبيع فى سوق العبيد ، ووجدت الرسالة معه ، فظن أنه رجل كبير الشأن . ولما ذهب قسان إلى الجزائر لاستخلاص الأسرى ، وقد اشتراه رجل يونانى اعتنق الاسلام اسمه ذالى مالى ، عرضا على سيده ثلاثمائة بيزيتا فدية له ؛ فأبى السيد قبول هذا المبلغ ، مع أن أخاه رودريجو عاد مع القسين . ولقد حاول ميجويل الفرار عدة مرات ، وفى إحدى هذه المرات هدده حسن باشا الوالى بالقتل ، ولكنه رأى من مظهر البطولة فيه ما جعله يعدل عن هذا الحكم . وفى سنة ١٥٧٨ حكم عليه بالجلد ألفى جلدة ؛ إذ كتب إلى حاكم وهران يلتمس مساعدته فى القرار إلى أسبانيا ، على أن الحكم لم ينفذ. وأعيد أخيراً إلى بلاده فى سنة ١٥٨٠ ، بعد أن استطاع أهله أن يجمعـوا فيما بينهم فدية كبيرة . وقد نزل إلى أرض بلاده فى بلنسية بصحبة بعض الجنود العائدين . وساروا فى موكب على قرع الطبول ونفخ المزامير ، وكانوا عارى الرءوس فى أسمال بالية ، على حين كان المنادون يبيعون للناس أوراقاً فيها وصف لقصتهم ؛ وقد قام القسوس بطبعها وبيعها لاعانة هؤلاء الجنود . ويظهر أنه لم يصب سرفانتز شئ من هذه الاعانة ؛ فقد ظل مقيما فى بلنسية لايستطيع الرحيل ، وكتب إلى أهله يطلب مالا ليتابع رحلته ، ويشكرهم شكراً جزيلا على التضحيات التى تحملوها من أجله ؛ واقترح أن يلجأوا لأحد الكتاب العموميين كى يضع التماساً يوضح ما أبلاه فى الحرب ، وما وقع له من أسر كى يمنح مكافأة على ذلك . ولكن فيليب الثانى كان فى شغل عنه ببلاد البرتغال التى تولى الكردينال هنرى عرشها لبضعة أشهر ، وكان فى السابعة والسبعين من عمره ومع ذلك التمس من البابا سستو الخامس أن يسمح له بالزواج أملا فى أن يخلف وريثاً . ولكن البابا رفض أن يمنحه حق الزواج ؛ إذ كان على علاقة وثيقة بالبلاط الأسبانى . . .

وعاد سرفانتز أخيراً إلى أهله ليرى أن آماله أصيبت بخيبة كخيبـة الملك الكهل .

كان مقدراً عليه أن يعيش عيشة صعبة ، وكان يؤنس فى نفسه البراعة فى الكتابة ، فتعاقد على أن يكتب مسرحية أو مسرحيتين فى زمن لم تكن المسرحيات فيه تعود بفائدة مالية . ومع ذلك أقدم على الزواج . ولم يكن مهر زوجته غير حديقة صغيرة وخمس أشجار من العنب وبعض الأثاث المنزلى وأربع خلايا نحل وعشرين دجاجة وديك وبوتقة . ولقد تبين له أخيراً أنه لايستطيع العيش بالأدب ، فذهب إلى إشبيلية حيث عمل فى جمع المؤن للأسطول العظيم المسلح « الأرمادا » . ولقد التمس أن يعين فى مركز بالمستعمرات كجواتيمالا أو فى إدارة الحسابات العامة لمستعمرة غرناطة الجديدة . ومن حسن الحظ أن رفض طلبه ، واضطر للاستمرار فى حياة البؤس بأسبانيا يساعد فى تموين السفن .

لم يكن سرفانتز رجلا يحسن الأعمال ، فسبب له هذا الأمر متاعب كبيرة ؛ فلقد أودع أحد التجار مالا ؛ ووعد التاجر بتسليمه إلى الخزانة الحكومية بمدريد ، ولكنه لم يفعل بل هرب بالمال ، وسجن سرفانتز لهذا السبب . وكان عندئذ فى أشد حالات البؤس ، ولقد عرف السجن فى جهات أخرى مثل أرجاماسيللا ، وهى مدينة حقيرة فى لامانكا إلى الجنوب من مدريد ، وقد أرسل إليها رسولا من رئيس دير لجمع متأخرات الضرائب فى تلك الجهة ، فهجم عليه جماعة من الأشرار واغتصبوا المال ، فوضع سرفانتز على أثر ذلك فى السجن ؛ وهو عمل ظالم . كان ذلك على الراجح بأمر دون رودريجو باتشيكو ، عمدة أرجاماسيللا وبطلها الوحيد . وقد انتقم سرفانتز منه فخلده واتخذه علما باسم دون كيخوت ورفعه فوق جواده روزيناتى .

ولما كنت من المعجبين بسرفانتز فقد رغبت فى الحج إلى أرجاماسيللا وهى تبعد عن طريق السكة الحديدية ، والطريق إليها وعر غير ممهد ، وقد وضع بعضهم معالم للطريق من الحجر المنحوت قبل سنوات ، وهى فى شكل أهرام صغيرة ، وكان منظرها حسناً ولكن الحشائش نمت حولها حتى غطتها ، ويروى أزورين الكاتب الأسبانى أن جيران ارجاماسيللا يقولون إنها قرية موبوءة ؛ إذ أن مياه النهر تغمر أرضها وتؤلف بركاً راكدة تتصاعد منها الأبخرة التى تؤثر فى السكان . ولقد كان فى تلك القرية سنة ١٥٧٥ ستمائة بيت ، فبلغ عدد بيوتها فى سنة ١٩٠٥ سبعمائة واحد عشر بيتاً فقط . وترى

المدينة دائماً نائمة يخيم عليها الهدوء ، والأبواب مقفلة عادة ، والشمس تضرب حوائط دورها البيضاء ، والساحة مهجورة لا يقطعها إلا كلب هزيل بين حين وآخر .

ويخيم الظلام عادة على الكنيسة القابضة ، وقد غطيت النافذة التى ينفذ منها الضوء ليضئ صورة شهيرة بغطاء أسمر . وقصدت راعى الكنيسة وهو شخص عجيب فى شبه غيبوبة ، وطلبت منه أن أرى صورة دون كيخوت، فقال إنى لا أعرف شيئاً عن ذلك، وأنا مثقل بالأعمال مع تقدمى فى السن ، ولكن هنالك الصورة التى تزار !

وكانت هنالك عجوز تمسك غطاء النافذة ، فقال الراعى : « سوف تساعدك فهى تفهم . » ثم خرج وتبعته المرأة ، ولكنها عادت بعد دقائق ومعها علبة كبريت وتسلقت المذبح وأضاءت إحدى الشموع الكبرى ، وأمسكت بها بأصابع مرتعشة ، وصاحت: هذا هو الوجه الذى تعرفه ، وجه « السيدة العذراء » .

ورأيت دون رودريجو باشيكو راكعاً فى الركن اليسارى من الصورة ، ووجهه عصبى ، وعيناه قلقتان ، وعظام وجنتيه بارزة ، ذو لحية مدببة ، وله منظر الفرسان بما يبدو عليه من ألم مع تكبر ، وكأنه خارج من إحدى صور المصور الجريكو .

قالت العجوز وهى تقترب بشمعتها الخطرة : « هذا باشيكو ، ومن وجهه ترى ياسنيور أنه كان مجنوناً . رباه ! ليس هنالك مايعمله الانسان فى جنونه غير الصلاة ! »

وسألتها الطريق إلى مكان السجن ، فصاحبتنى واخترقنا عدة شوارع مرصوفة بالحجر الصلد غير المتساوى ، وكانت الدور حقيرة جدا وقد طليت بالطلاء الأبيض. ويقع السجن فى ركن من أركان أحد هذه الشوارع فى دار عادية، وفى فناء الدار باب قديم ظل قائماً مئات السنين يسد المدخل إلى سجن سرفانتز ، وبعد أن ينزل المرء درجتين أو ثلاثا يجد غرفة مظلمة عارية مستطيلة وأرضها تراب ، هنا كان يرقد سرفانتز ، وعلى الضوء الذى ينفذ إليه من تحت هذا الباب ، كتب الفصول الأولى من كتابه .

وكان وهو يكتب كتابه هذا يفكر بلا ريب فى الماضى : فى ذلك اليوم

من سنة ١٥٩٥ حين نال الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر فى سرقسطة ، وقد أقيمت فى عيد القديس هياكنت ؛ وكانت الجائزة عبارة عن ثلاث ملاعق من الفضة . وقبل ذلك بثلاث سنوات اتفق مع رجل اسمه روزاريو على أن يكتب ست مسرحيات نظير مبلغ ٥٠ دوقية ، على ألا يدفع روزاريو أى قسط من المبلغ قبل أن يبين له أن هذه المسرحيات هى خير ما أخرج فى أسبانيا ! ولم يسفر هذا الاتفاق عن شئ . ولابد أنه فكر فى أيام الأسر فى الجزائر وكيف اشترك فى ثورة أثارها الأسرى الأسبانيون . . . ألم يكن مثله مثل غيره من الغزاة الأسبانيين أمثال كورتيز وبيزارو ؛ أو مثل القديس لويولا ذلك الجندى المغمور الذى تمكن بقليل من الرجال أن ينتح العالم روحيا !

أما قصة « دون كيخوت » فقد ظلت بعض الوقت يتناقلها الكتاب وهى مخطوطة ، ورآها على هذه الصورة لوبى دى يجا الكاتب الخصب الذى ظن وقتا ما أن مابها من نقد موجه إليه . وهو أول من أشار إلى « دون كيخوت » فى كتبه إذ قال : « ليس بين الشعراء من بلغ فى سوء القصد مبلغ سرفانتز وفى الجنون مبلغه ؛ إذ نوه بدون كيخوت . »

وقد نشر المؤلف كتابه العظيم لأول مرة فى سنة ١٦٠٥ ولكنه وصفه فى المقدمة بقوله : « ليس فيه من المزايا الا ما يمكن أن ينشأ فى السجن! »

ورسم المؤلف لنفسه صورة إذ يقول عن نفسه : « جسده ليس بالنحيل ولا بالمتلئ ، وهو لا بالطويل ولا بالقصير ، ينحنى قليلا عند الكتفين ، ويسير على قدميه فى غير خفة . شارباه طويلان وفمه صغير ، ولم يبق له إلا أسنان قليلة فى حالة سيئة ولا تناسب فيها . »

وجد « دون كيخوت » فى وقت قصير إقبالا منعدم النظير ، ولكن بالرغم من شهرة الكتاب ، كان سرفانتز بعد خمسة شهور من نشره فى فاقة شديدة حتى اضطر إلى اقتراض أربعمائة وخمسين ريالا من ناشره .

ولكى نعرف من هو فارس لامنكا يجب أن تكون لدينا صورة كاملة عنه ، ونتخيله منكبا على قراءة كتب البطولة ، ونسمعه يتكلم إلى الأبطال والسحرة ، ونراه يسبح فيما وراء العقل فى عالم من الخيال والمجد ؛ فهو يمتطى جواده العتيق ، وعليه درعه التى علاها الصدأ ، فيقطع الجبال والأودية

باحثاً عن المغامرات الجديرة بسيفه . وترى كل شئ يتغير أمام خياله الخصب ؛ فالسيدات اللاتى ينقذهن من سحر السحرة إن هن إلا نساء عاديات فى طريقهن إلى أعماقهن فيدخل الرعب إلى قلوبهن . والمردة الذين يهجم عليهم فى شجاعة ليسوا إلا طواحين — والطواحين فى لامنكا صغيرة الحجم جدا — وهو يقول لتابعه : « إلزم الهدوء يا صديقى سانشو ؛ فان أمور الحرب أكثر من أى شئ آخر عرضة للتغيرات المستمرة . وفضلا عن ذلك أظن بل أعتقد أن الحكيم فريسنو أحال هؤلاء المردة طواحين عامداً لكى يحرمنى مجد التغلب عليهم . » ودون كيخوت شجاع ليس له غرض وهو إنما يحارب من أجل الفضيلة . و إذا كان يبغى أن يقيم ملكاً فذلك لكي يهبه لتابعه الأمين .

قال مونتسكيو : «إن السيد يحافظ على ممتلكاته ، ولكنه لا يحافظ مطلقاً على حياته . » والصفة الكبرى والأولى فى دون كيخوت هى شجاعته التى لاشك فيها . ولقد اشتهر السادة الأسبانيون فى القرن السادس عشر بشجاعتهم حتى نوه بها عدوهم اللدود سير والتر رالى . فهو يقول فى كلامه عن المستكشفين الذين كانوا يبحثون عن أرض الذهب : « لقد سرت عليهم السنوات الطويلة وهم يبحثون فى منطقة ضيقة . ولقد أنفق بعضهم مجهوده وثروته ثم حياته فى البحث عن أرض الذهب دون أن يصل إلى نتيجة ، ولكنهم كانوا لا يعرفون اليأس . » وكان فى دون كيخوت عنصر آخر خير من الشجاعة ، هو شجاعة الرجل المزود بالايمان الروحى حين يحيط به الخطر أو تلم به الحيرة .

وتتجمع فى دون كيخوت كل أنواع الجنون التى وصفها شكسبير — جنون المعتوه والمحب والشاعر . ولقد قال يونامونو الكاتب الأسبانى : « لقد فقد عقله كى يكون لنا مثالا دائماً للسخاء الروحانى ، ولقد قدم لشعبه أكبر تضحية وهى عقله ، فصار خياله مليئاً بمضحكات جميلة . وأعتقد أنه الصدق ما كان جميلا فقط » . وقد توج نفسه بقوة ساعده إمبراطوراً على طرابيزون على الأقل ، فشكا سانشو قائلا: «إلى أية حالة سيئة بلغ عقلك يا سيدى ! » وكان يظهر له جنون سيده فى تركه المال سعيا وراء المجد . فالرجال من أمثال سانشو يعتبرون المعتوه عاقلا إذا كان عقله يحول بينه وبين الغنى !

لقد صب سرفانتز عصارة نفسه فى بطل قصته فى سيل من العطف والفكاهة

فصار رمزاً للانسانية المليئة بالخيال . ومستر بكويك الذى خلقه الكاتب ديكنز هو صورة من هذا النوع ؛ فهو نوع من دون كيخوت إلا أن به تعلقاً بشراب اللبن وجعة الرجاجات . ولقد احتذى ديكنز فى العلاقة بين هذا السيد البسيط الطيب القلب وبين سام ويلر الرجل اليقظ النبيه ما كان من علاقة بين دون كيخوت وتابعه . فبين السيد وتابعه تجد العلاقة السهلة نفسها ، مع تلك النوبات التى يثبت فيها السيد وجوده . ونجد كذلك الكاتب ثيكرى يشير إلى ما وجده فى دون كيخوت من متعة فى رسالة كتبها وهو يستعد للكتابة عن الكولونيل نيوكم ، وهو دون كيخوت آخر .

قال سلفادور دى مدرياجا : « إن دون كيخوت عظيم وهو مسلح من قمة الرأس إلى القدم . ولقد نشأ من نبات أفكار سرفانتز ، وزادت من قدره التجارب والمغامرات بمرور ثلاثمائة عام ، وهو يسير ممتطياً جواده فوق ذلك الميدان المترامى من النفس البشرية » .

وقال سرفانتز فى مقدمة كتابه الخالد : « إننى فى الظاهر والد دون كيخوت ولكنى فى الحقيقة زوج أمه » فهو بالغريزة ، التى هى تاج المواهب للعبقرية الخالقة ، عرف أن دون كيخوت هو ابن الطبيعة لا ابنه هو ؛ وتكهن أنه بمرور العصور سيبلغ عظمة أكبر مما قدرها له زوج أمه . ولقد طال الجدل العقيم فى هذه المسألة ، وهى هل كان سرفانتز يريد أن يمنح أشخاص روايته قيما رمزية ، ولو أنه أراد أن يرمز لمعنويات لأخفق فى إخراج عمل فنى ؛ ولكنه لم يهتم إلا بخلق شخصيات ، وهذا هو السبب فى أنه أبرز للعالم رموزاً دائمة . فكما أن الحجر يلقى على وجه الماء فيحدث دوائر تزداد اتساعاً ، مع أن سقوطه لم ينشأ إلا عن اتباع قوانين الجاذبية ، كذلك المؤلف الذى يستطيع لمس بحر الروح يحدث فيها دوائر أكبر من أن يدركها البصر . فدون كيخوت وسانشو ودون جوان وهاملت وفاوست هم الخمسة العظماء الذين خلقهم خيال الانسان ، وفى كل جيل كان يحاك حول أسمائهم نسيج جديد من الأساطير والآراء والتفاسير والرموز . وهذه مزية المخلوقات الفنية الحية التى تفرض شخصيتها بمجرد حيويتها على عقول الناس .

لقد ذكر الأستاذ هربرت جريرسون ، وهو يكتب فى سنة ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى ، أن الكتب التى كانت تجد إقبالا من القراء أثناء

النضال هى الكتب ذات الوضوع الانسانى الخالص لا الفلسفية ولا الدينية ، لا العاطفية ولا المجردة من العاطفة ، بل الكتب الانسانية الممزوجة بشئ من السخرية البسيطة ، وفيها حرارة الاتصال العاطفى لا العطف . وكان كتاب «دون كيخوت» فى طليعة هذه الكتب ؛ ففيه دليل على ما تقترفه الأقدار أحياناً، وفيه ذلك المزيج بين التسلية وحب الانسانية واحترامها ، مما هو خليق بتلك الفترة التى شهدت تضحيات وآلام هائلة . وأضاف الأستاذ جريرسون قائلا : إن قصة دون كيخوت تخفف النقد اللاذع للطبيعة الانسانية بأن تصب عليه نهراً من الفكاهة المستمرة العاطفة . فبطلا القصة وإن كانا مضحكين فهما محبوبان وقريبان إلى القلوب . ومن عادتنا عندما نتكلم عن سرفانتز أن ننسى مؤلفاته الأخرى . ومع ذلك فقد وصف جون ماب حين نقل « القصص المثالية » إلى اللغة الانجليزية هذه القصص فقال : « إنها تحتوى على أنواع من المتعة » . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المتعة مضاعفة لدى قراء «دون كيخوت» .

كان سرفانتز يكتب على مهل. ولقد وعد وعداً غامضاً بتكملة قصة « دون كيخوت » كما نشرها أولا . ولكن هذه التكملة لم تكن لتظهر لولا أن أحد الناس جرؤ على نشر تكملة مزيفة لها . فدفع هذا الأمر سرفانتز إلى الكتابة بالرغم منه ؛ إذ كان وقتئذ فى صحة سيئة ، لابسبب آلام جراحه وحياة الفاقة فحسب ، بل كذلك بسبب إصابته بنوبة من ضغط الدم شديدة ، وعلى ذلك أخرج للعالم الجزء الثانى العظيم من هذه القصة ، حيث نجد الفكاهة أدق وأعمق والأسلوب قد زاد حسناً .

فالفارس الذى كان ضحية فى الجزء الأول للاعتداء وهراوات الخصوم فى مواقف لا عداد لها ، نراه طوال الجزء الثانى لا يتعرض لما يمس كرامته ؛ فى حين أن سانشو يفقد شيئاً من مكر الفلاحين ، ولكنه يكسب كثيراً فى هزله وذكائه ومسلكه . ولقد زاد حب سرفانتز لبطليه ، وهو يكتب بتلك الثقة التى يجدها الكاتب الشهير حين يعمل للمحافظة على شهرته .

ولكنه ، على عكس شكسبير ، لم يبلغه الرخاء فى سنواته الأخيرة من حياته . ويروى دى توريز الذى رخص بنشر الجزء الثانى أنه عندما زار فرنسا فى سنة ١٦١٥ فى صحبة رئيس الأساقفة ، أن الكثيرين من الفرنسيين كانوا يريدون أن يقفوا على دقائق حياة سرفانتز ، فأخبرهم بأنه فى كهولته ، وقد كان

جنديا ، وهو من أسرة طيبة ، ولكنه فقير . فقال له أحدهم : « لماذا لا تساعد الخزانة العامة مثل هذا الرجل ؟ » فاعترض آخر قائلا : « إذا كان الفقر يرغم سرفانتز على الكتابة فأرجو ألا يعرف الرخاء مطلقاً لأن فقره يغنى العالم » .

صار سرفانتز بعد كتابته « لدون كيخوت » من عظماء الكتاب فى كل العصور : لقد قيل إن الأطفال يقلبون أوراق كتابه ، والشبان يقرءونه والرجال يفهمونه ، والشيوخ يمتدحونه — ويقرأه القراء بعدد كبير من اللغات — وقد نقل إلى اللغة الانجليزية إحدى عشرة مرة . ورأيت فى مكتبة خاصة بأفيلا مائة وخمسين طبعة بالأسبانية ، منها طبعة فاخرة طبعت لذكرى مرور ثلاثمائة سنة على ما حدث فى أرجاماسيللا وفى الغرفة نفسها التى سجن فيها وكتب الفصول الأولى من الكتاب .

سأل لويس الرابع عشر أحد رجال بلاطه : هل يعرف اللغة الأسبانية ؟ فأجاب أنه لا يعرفها ، ولكنه يعتقد أن يستطيع فهمها والتحدث بها فى مدة قصيرة جدا . وقد خيل إليه أن الملك يريد تعيينه سفيراً له فى مدريد فأكب على دراسة هذه اللغة بهمة ، فلم تمض بضعة أشهر حتى استطاع أن ينبئ الملك بنجاحه . فصاح لويس : « إنك لرجل سعيد إذ تستطيع الآن أن تقرأ كتاب « دون كيخوت » بلغته وتتذوق سحره وجماله ! . . . »

كان عقل سرفانتز أكثر نفوذاً من عقل أى كاتب آخر إلى أعماق الشعب الأسبانى ، وكان يعرف دخيلة النفس الأسبانية . ففى كتابه الخالد يرسم بوضوح الفرق البين بين العدالة الأسبانية وبين العدالة اليومية التى تتمثل فى القوانين والمحاكم : يرسم الأولى فى دون كيخوت ، ويرسم الثانية فى سانشو بانزا . فالأحكام التى تأتى فى سياق الكتاب ونراها معتدلة متزنة حكيمة هى التى تصدر عن سانشو بانزا عندما كان حاكماً لجزيرة ، أما أحكام دون كيخوت فتقام على العدالة الأولية ؛ فهو فى حماسته يميل أحياناً إلى جانب وأحياناً إلى الجانب الآخر . وهو يقدم على مغامراته للاحتفاظ بالمثل العليا للعدالة فى العالم ، فعند ما يعثر على أولئك العبيد الذين يشغلون فى السفن ويتحقق لديه أنهم مجرمون يعمل لاطلاق سراحهم !

كان سرفانتز يرى الأسبانيين على حقيقتهم ؛ فهم يضعون لأنفسهم قيمة خاصة ، فلا يرون أنفسهم . وهو يرسم بلاداً أسبانية متعلقة بمثلها العليا التى

لم يبق لها مجال ؛ ولذلك فهى فى الطريق المؤكد للخراب فى سبيل خلاص تلك المثل .

ومن المحتمل جدا أن شكسبير ، عندما اتخذ ستراتفورد مقاماً له فى آخر أيامه وعاش فيها فى رخاء ، قد قرأ ترجمة توماس شلتون لكتاب « التاريخ الممتع للفارس الذكى دون كيخوت » الذى ظهر فى سنة ١٦١٢ وقد أهديت هذه الترجمة للورد هيوارد دى والدن الذى صار ايرل أوف سفولك ، وكان يشمل شلتون بعطفه . وكان للادى سفولك راتب سنوى قدره ألف جنيه تتسلمه من النفقات السرية للملك أسبانيا . وقد يكون شلتون شريكاً لها ، وهو لمعرفته اللغة الأسبانية ذو فائدة فى هذا الباب . ولكن يجب أن نغتفر الكثير لهذا الرجل الذى نقل هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية نقلا ممتعاً مما جعله من عيون الأدب الانجليزى .

وكان يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ هو اليوم الذى مات فيه شكسبير الشاعر الانجليزى العظيم ، ومن المصادفات الغريبة أنه كان اليوم الذى مات فيه سرفانتز كاتب أسبانيا العظيم ، وانتهت حياته العاصفة .

ذكرنا فى سياق هذا المقال بعض آراء الكتاب الحديثين فى سرفانتز وفى مؤلفاته . ولنعرض الآن فى تفصيل لقيمة هذا الكاتب فى الفكر الحديث ، وكيف ينظر إليه النقد الحديث . لقد تعرض الناقد الفرنسى مارسيل بتايون فى كتابه « أرازم وأسبانيا » لسرفانتز وأبدى ملاحظات قيمة ، وهذا الناقد الفرنسى هو فى رأى الأستاذ ترند ، من أساتذة جامعة كامبردج ، « أكبر العلماء فى الأدب الأسبانى ممن هم على قيد الحياة ». فهو يرى أن بعض النافدين أنفقوا وقتهم سدى إذ أرادوا أن يثبتوا أن سرفانتز هو طليعة أحرار الفكر الحديثين ، فى حين أن مؤلفاته التى ألفت عند طغيان الموجة المضادة للاصلاح الدينى تتصل بالأدب الجدلى لعصر النهضة ، وما كان لأرازم من تأثير خفى فى هذا الأدب ، وهو ذلك التأثير الحر الحاد الذكى . ورسم أمريكو كاسترو فى كتابه « تفكير سرفانتز » صورة تجعله قريباً من الذين يغلبون العقل على الدين ، ولكنه كان عميقاً فى دراسته لسرفانتز حتى إنه لاخطر ، على قول بتايون، من اتخاذه دليلا وإن اختلف معه المرء فى مواضع قليلة . ولقد ظل سرفانتز حتى

نهاية حياته مخلصاً لآراء الشباب وللتفكير الذى ورثه عصر فيليب الثانى من عصر شارل الخامس . ومن الراجح جدا أن سرفانتز كان من تلاميذ اليسوعيين فى أشبيلية بين سنتى ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ . ولقيت بذور الأدب التى زرعوها أرضاً خصبة . ويقول بتايون إن أسلوبه فى «دون كيخوت» هو مزيج ذو طابع شخصى قوى ، من رقة بوكاتشيو المزدهرة والترفع المليء بالسخرية الذى نجده فى أريوستو والايجاز القوى الذى نجده فى خير تقاليد المؤلفين الأسبانيين . فهو يحب تقطيع الكلام المطول ، ونراه مع ذلك ينقل هذه العادة لدون كيخوت الرجل الكثير الأحلام والكلام ؛ ففى قصة «الأرملة المرحة» التى تختار شاباً لم يدخل فى الكهنوت ليكون صديقها بالرغم من نصح رئيسه له ، نراها تقول — وليس فى قولها ما يدل على عداوة لرجال الدين — : « كل ما أطلب أن يعرف من الفلسفة مقدار ما يعرفه أرسطو إن لم يكن أكثر » . ولقد تشرب سرفانتز عناصر الأساطير الشعبية مما يجعل لأسلوبه البساطة التى تسحر القارىء أكثر من الصنعة الكلامية . وهو أكثر من أى كاتب آخر من كتاب عصره يكتب كما لو كان يتكلم ، وينطوى مبدؤه الأخلاقى على العفو والتسليم ؛ فمثلا نجد الزوج الغيور الكهل الذى خانته زوجته الشابة بالرغم من أنه أغلق بابها بثلاثة أقفال يتهم نفسه ويعفو عنها وتسوء حاله بقية حياته .

وكان سرفانتز ورعاً مستنيراً وحذراً . يذكر سرفانتز فى الطبعة الأولى من كتابه أن دون كيخوت مزق طرف قميصه وجعل منه سبحة بأن عقده عدة عقدات ليشيد بذكر العذراء مليون مرة . وفى الطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٦٠٥ حور هذا الحادث فجعل سبحته أحسن حالا ، بأن جمع الحبوب وضمها فى سبحة ، على حين اختفت العبارة الخاصة بالعذراء من الكتاب . ويمكن أن يقال إنه لو لم تتأثر أسبانيا بارازم الذى نرى فيه مزيجاً من الحماسة والسخرية لما أخرجت لنا كتاباً مثل « دون كيخوت » .

ويقول بول هازار الفرنسى أيضاً فى رسالته المسماة « دون كيخوت » : إننا قد نجد فى هذا القرن العشرين وهو عصر السرعة مواضع من دون كيخوت مملة بعض الشيء ، ونجد تكرار المغامرات سهلا ويسيراً ، ولكن لا بد أن نعجب بما فى القصة من حياة مستمرة . ويقول فرنسيس جام : « إنى لا أضع أنشودة رولان فى مرتبة أعلى من دون كيخوت » . ولقد نقل دستويفسكى فى قصته «المعتوه»

صورة البطل الأسبانى إلى الحياة المعاصرة . فالأمير ميشكين على ما به من نقص جسدى ومرض وصرع يظل طيب الضمير عنيداً فى طيبته ، فهو لا يعرف السخرية ولا الكبر ولا الأنانية ، وهو يقطع الحياة محتفظاً بصفاء نفسه التى تشبه نفوس الأطفال ؛ ولقد وجدت روسيا فى بعض نواح من « دون كيخوت » شيئاً من نفسها ؛ لذلك تبنته فى رفق .

ومن خير ما قيل عن سرفانتز ما كتبه الأستاذ أنتوستل أستاذ الآداب الأسبانية فى أكسفورد فى كتابه عنه ؛ فهو يقول : إن كتاب « دون كيخوت » لا يختلف عن كتاب أورلندو الساخط لاريوستو إلا فى أنه كتب نثراً ؛ ففيه نفس العطف الشرب بالسخرية على مثل أعلى يستحيل تحقيقه ، وفيه نهر طاغ من الآراء المبتدعة . على أن إريوستو اعتمد على ما فى خياله من جدة وجمال فى حين عالج سرفانتز مسألة هامة هى مسألة الحقيقة ؛ فقد صور أغراضاً وأعمالا رفيعة ترتطم بعالم الحيلة والسوء . فكشف عن الصفتين السائدتين فى عصره ، حيث نجد الحديد الصدئ تحت قبعة الفرسان . فعقله وعقل بطله يحلقان نحو الكمال الذى يبدو سهل التحقيق فى ضوء العقل والطبيعة ، ولكن بطله يصطدم بحقائق لا يمكن ردها ، وهو نفسه بدلا من أن يجد عوناً من الخزانة العامة (كما ظن الفرنسيون) وجد نفسه ، وقد بلغ الثامنة والستين ، رجلا « كهلا كان جنديا وسيداً عاش فقيراً » .

فهذا المعنى المزدوج الذى يرفع « دون كيخوت » فوق جميع مؤلفات العصر ماعدا «هاملت» ، جعل النقاد الأسبانيين يلحقونه ، بالمظهرين اللذين سيطرا على العصر الذهبى فى أسبانيا ، وهما التفاؤل والرفعة بتأثير إرازم و إنسانيته ، وذلك الانغماس المخادع فى حركة مقاومة الاصلاح الدينى ، ومن تشبيهات أمريكو كاسترو التى تنطبق على هذه النظرة التى لحمتها قيام وجهين مزدوجين للحقيقة طست الحلاق الذى ظنه دون كيخوت غطاء الرأس للفارس ؛ وهو مثال حسن و إن كان مبالغاً فيه . على أن كتاب «دون كيخوت» سيظل قصة من نسج الخيال ليس لها غرض ظاهر إلا القضاء على نوع من الأدب كان سائداً قبل عصره ، فهو إذا كان صورة من عصره فليس عظة لذلك العصر . أجل! إن سرفانتز الشاب تأثر بتعاليم إرازم ، وكان متفائلا بعقيدته ؛ فقد كتب حتى فى وصيته الأخيرة يقول : إن هناك كتباً بديعة كان لا يزال على استعداد لتكملتها ،

ولكنه ظل مديناً طول حياته . وإذا كانت الرجعية الدينية وما أصاب بلاده من خسائر قد حدت من آماله ، فقد قابل الكوارث بشجاعة أصيلة فيه ؛ ولم يكن معلمه الحقيقى هو تغلب الرجعية الدينية أو خسارة الأسطول الأسبانى ، وإنما الذى علمه هو الأيام واضطراب حياته . يقول انتوستل: لم يأت كاتب يهتم بالايضاح مثل سرفانتز ؛ فهو دقيق فى شرح القواعد لكل شئ حتى طريقة الوقوع فى الحب . وكان الكثيرون من أكبر الكتاب بين المعلمين ولكن القليل منهم عالج موضوعات كثيرة مثل سرفانتز الذى كان يعتقد فى تعقل الطبيعة وتعليم الخير ؛ فكان فيه الفيلسوف الاجتماعى والأخلاقى وإن لم يكن له تدريبه وتعليمه .

وقال الأستاذ كير أستاذ الشعر فى جامعة أكسفورد مقارناً بين فيلدنج الكاتب الانجليزى وسرفانتز : إن الأول كان له الثانى من قبل مرشداً ، وعندما رأى فيلدنج أن مؤلفاته تنمو تحت يده إلى شئ أكثر مما كان يظن عرف مصدر هذا . وكان ينوه بفضل سرفانتز عليه . أما سرفانتز فلم يكن يتصل بأحد من قبل حين خرجت مؤلفاته من أصول عقله ، حمله نبوغه إلى أبعد من غرضه الأول وهو التشهير بقصص الفروسية ، ولكنه لم يستطع التخلص من ثقل القواعد الأدبية فى عصره والأساطير الغرامية وغيرها . ويقول كير إن سرفانتز من كتاب الفكاهة ؛ لذلك يستطيع أن يفكر فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ؛ والكثيرون من ناقديه ليست لديهم هذه المقدرة ؛ لذلك هم يتبعون خطا واحداً من تفكيره على حين يرمى الكاتب إلى عدة أغراض فى وقت واحد . ولقد رأى هيجل هذا فى سرفانتز فتبين له أن الفروسية التى كان الكاتب يسخر منها ويهزأ بها فى شخص دون كيخوت هى فى الحقيقة صفة من صفاته الثابتة ، وأن القصة التى تنطوى على المبالغات التى كان فى الظاهر يطاردها من العالم إنما خرجت إلى هذا العالم فى ثوب جديد . ونجد مثل هذا التناقض مع التناسق فى قصة من خير القصص التى أخرجت بعد « دون كيخوت » ، وهى قصة « كنيسة نورثانجر » للكاتبة الانجليزية مس أوستن ، وهى أضيق أفقاً من الكتاب الاسبانى وأقرب بلوغاً إلى الكمال؛فان دون كيخوت، على قول كير، مؤلف عظيم غير معتنى به ؛ لأنه ملئ بالمغامرات وفيه من تنوع الأساليب والأغراض الأدبية ما يجعله فوضى .

ونحن الذين نعيش اليوم — وإن كنا أقل حياة من بطلى سرفانتز الخالدين — نلخص حياته فى القول بأنه رجل سمح ودود يعرض للأحوال الاجتماعية دون أن يوجه النقد إليها . وكان يشعر كل الشعور بالماضى ، ولكنه يعيش فى الحاضر وسيعيش إلى الأبد . وقد يحسن الاختتام بعبارة دون كيخوت فى وداعه: « ليست هنالك عصافير فى هذه السنة فى عش الطيور الذى بنى فى العام الماضى . »

هنرى برليو

نقلها عن الانجليزية ز. ى. ع.